من خصائص الأدب الصوفي – ولوعه بالإشارة–

أ.د: أمحمد الحاج لقواس جامعةالشلف

د: عبد القـادر بعـداني جـامعـة الشلـف

ملخص:الصوفيون يعشقون التلويح والتلميح والإيحاء والإيجاز، ثم إن أفكارهم لطيفة وروحية ، وهذا ما تحتويه الإشارة ، والإشارة عند الصوفيين أبلغ من العبارة ، يقول بعضهم : –علمنا إشارة فإذا صار عبارة صار خفياً–لهذا نجد الأدب الصوفي أدبا غامضا لأنه تجاوز اللغة الحسية العاجزة عن الإبانة والإفصاح ، وكما هو معروف عن الصوفيين بانتقالهم من حال إلى حال فتعجز اللغة اللفظية عن الوصف ، فهم في حاجة إلى الإشارة.

الكلمات المفتاحية: الإشارة؛ العبارة؛ التلويح والتلميح؛ الحال؛ روحية.

Abstract: Les soufis adorent la connotation, le symbole, l'implicite, la concision, ce qui rend leurs idées fines, mystiques et spirituelles. Toutes ces idées prennent place dans le lexique des soufis. Il est admis que ces soufis déclarent que l'implicite est plus révélateur que l'explicite. Certains d'eux expriment ceci : « notre science est implicite, et tandis qu'elle devient expressive elle bascule vers l'invisible ».

C'est pour cette raison qu'on trouve que la littérature soufie est une littérature vague et énigmatique parce que, selon eux, la langue humaine ne possède pas tous les outils nécessaires pour exprimer et donner avis sur le monde visible et invisible.

Mots clés : la connotation, le symbole, l'implicite, la concision, le spirituel

تمهيد : يلجأ الصوفيون إلى استعمال الإشارة في تعابيرهم لأغراض متعددة ومنها : أنهم أحيانا مضطرون لعجز اللغة عن التعبير عما يجيش بخيالهم وعما يختلج في صدورهم – ضاق اللفظ واتسع المعنى – وقد يكون السبب هو : تسترهم خوفا من التنكيل بهم ، فاختاروا أسلوبا خاصا بهم لا يفهمه إلا من هم في طائفتهم ، ثم إن أفكارهم روحية عميقة ورقيقة فيكتفون بالإيحاء والتلميح ، والصوفيون معروفون بانتقالهم من حال إلى حال ، واللغة العادية غير قادرة على وصف الحال ، وهذه السمات تحتويها الإشارة ، فالإشارة عند الصوفيين أبلغ وأفصح .

* **مفهوم الإشارة عند الصوفيين**: تعرّف الإشارة بأنّها (بلاغة عجيبة، تدلّ على تعدّد المرمى، وفرط المقدرة، وليس يأتي بها إلاّ الشاعر المبرز، والحاذق الماهر، وهي في كلّ نوع من الكلام لمحة دالة، واختصار وتلويح يعرف مجملا، ومعناه بعيد ظاهر لفظه)[1]، وتوسم بالإيجاز، وكثافة المعنى، مضمونها عميق، لا يفهم مرماها ومقصدها إلاّ ذوو الألباب وأولي النّهى، واللّبيب بالإشارة يفهم (فهي أن يكون اللفظ القليل مشتملا على معان كثيرة بإيماء إليها أو لمحة تدلّ عليها، كما قال بعضهم وقد وصف البلاغة، فقال: (هي لمحة دالّة)[2]، فالإشارة يشترط فيها أن تهدف إلى غاية، كتوصيل معنى، فالإشارة لا تعني الإبهام، وبالتّالي فهي تثير الفكر ومن شأنها استفزاز المشاعر فهي جمال في الأدب.

يعرّف البسطامي "ت 632 هـ" الإشارة تعريفا صوفيا لا أدبيّا، فهي أدقّ، وأكثر بعدا وعمقا وإيحاء (إنّها دليل على البعد، وقد قيل : إنّها نداء على رأس العبد)[3].

يؤكّد الصّوفيون أنّهم مضطرّون إلى استعمال الإشارة . قد يكون ذلك لأمر سياسي، أو لعجز اللغة عن إيفاء الغرض واحتواء المعنى المراد . ومن ذلك انقسم النقاد إزاءهم قسمين، فريق يحكم عليهم بظاهر القول والخطاب فضلّلهم، وبعضهم من كفّرهم، وطائفة أخرى فهمت إشاراتهم ومقاصدهم ومغزاهم، فأعجبوا بأدبهم أيّما إعجاب، وتذوّقوا حلاوته، فالإشارة عند الصوفيين هي ما يخفى على المتكلّم كشفه بالعبارة للطافة معناه(لأنّ ذلك لطائف مودعة، في إشارات لهم تخفى في العبارة من دقّتها ولطافتها، وذلك في معنى العوارض والعوائق والعلائق والحجب وخبايا السّر ومقامات الإخلاص وأحوال المعارف وحقائق العبودية)[4]، فالعلاقة مع الله علاقة روحانية، وكلّ ما هو روحاني يصعب وصفه وتبيانه، فكان لزاما اللجوء إلى وسيلة تعبيرية، فكان السّبيل هو الإشارة،قال **السّراج الطوسي ت 378 هـ** " :(وإشارتهم في ذلك تبعد عن الفهم، فهذا العلم أكثره إشارة، لا تخفى على من يكون أهله، فإذا صار إلى الشرح والعبارة، يخفى ويذهب رونقه)[5]، فالصوفية يؤثرون الإشارة عن العبارة، لذلك أتت ألفاظهم غامضة، لا يدركها إلاّ هم، يقول **الواسطي"ت632"**هـ:(وقوم علموا مصادر الكلام من أين؟، فوقعوا على العين، فأغناهم عن البحث والطلب)[6]، ورغم تمكّنهم من ناصية القول إلاّ أنّهم عجزوا عن

الوصف والتّعبير، فلجأوا إلى" العين " والعين عند الصوفية رمز إلى الإشارة، **قال أبو عليّ الرّوذباري"ت 322هـ**: (علمنا هذا إشارة، فإذا صار عبارة، صار خفّا، والإيماء إشارة بحركة جارحة)[7].

اللطيف من الأمور لا تقدر على إيضاحه العبارة، فتستعمل الإشارة لأنّها أبلغ من العبارة في تعريف المبهم كما اعتبرها ابن الفارض"ت 236هـ" في قوله: (في الإشارة معنى ما العبارة غطّت)[8]، ففي الإشارة فهم معنى وإدراكه وتحصيله وإيصاله، لا تعرفه العبارة ولا تقدر على إبلاغه، ويذهب إلى نفس المعنى مبرزا صعوبة إيصال الصوفي ما يريده إلى غيره بواسطة اللغة العادية المتواضع عليها فيقول:(من لم يقف على إشاراتنا، لم ترشده عباراتنا)[9].

تكفي الإشارة . ولو كانت قليلة . عن العبارة ولو كانت كثيرة وطويلة، زيادة عن شدّة وقوّة تأثيرها، ثمّ إنّها تدلّ على ذكاء منشئها ومتلقّيها، فاللبيب بالإشارة يفهم(من لم يهزّه يسير الإشارة، لم ينفعه كثير العبارة، ربّ لطائف أقوال تنوب عن وظائف أموال، اللبيب تكفيه اللّمحة، وتغنيه اللحظة عن اللفظة)[10].

سأل بعض المتكلمين أبا العباس بن عطاء، ما بالكم أيّها المتصوّفة، قد اشتققتم ألفاظا أغربتم بها السّامعين، وخرجتم عن اللسان المعتاد ؟ هل هذا إلاّ طلب للتمويه، أو ستر لعوار المذهب؟ فقال**أبوالعباس" ت 686هـ**":(ما فعلنا ذلك إلاّ لغيرتنا عليه ولعزّته علينا كيلا يشربها غيرطائفتنا)[11].

لا يجد الصوفي في تعبيره عن الأحوال التي يترقّاها، العبارات والكلمات التي توصف الموقف والحال، فيلجأ إلى الإشارة، ولكن حتّى الإشارة تعجز عن التعبير، فالموقف لطيف ودقيق ورقيق، يقول **أبو حيّان التوحيدي"ت 414هـ** (بيني وبينك أحوال، اللسان لا يصنّفها، والعبارة لا تصرّفها، والوصف لا يأتي عليها، والإشارة لا تصل إليها، كلّ ذلك للطافة ورقّة ونحافة ودقّة)[12].

يصعب فهم الصوفيين، فلا يفهم أدبهم وأقوالهم إلاّ من عاشرهم أو اطّلع على مصطلحا تهم، لذلك كفّرهم من كفّرهم، وهجرهم من هجرهم، وشرّدوا وقتّلوا، والصوفيون أنفسهم يوسمون من لا يفهمهم بالعجمة والجهل، وأنّهم بهذا فاتهم الخير الكثير، وحقّ عليهم البكاء والنّواح، يقول التوحيدي: (وإن كنت عن هذه الكنايات عميّا، وعن هذه الإشارات أعجميّا، طاحت بك الطّوائح، وناحت بك النّوائح، ولم توجد في زمرة الغوادي والرّوائح)[13].

الكلام الصوفي ذو احتمالات ودلالات وتأويلات، يعتمد على العبارة المدفونة الملبّسة والمغطّاة بالرّمز والإشارة، يقول **الجنيد"ت 297هـ**":(التّصوّف جامع للعبارات والإشارات)[14]، وحتّى الإشارة تتفاوت وتزداد عمقا على عمق، وتفنّن على تفنّن، وكلّما كانت الإشارة أبلغ، كان التعبير والوصف أدقّ وأبلغ(... وإيّاك أن تشير إليه بالإشارة، ولكن الإشارة في الإشارة)[15].

* **عوامل غموض الأدب الصوفي**:يتسم الأدب الصّوفي بالغموض النّاجم عن الإفراط في استعمال الإشارة والرّمز، لذلك لا يفهمه إلاّ من كان عالما ومطّلعا وعارفا بمعجمهم، أو عاش حياتهم وظروفهم، ويكون قادرا على حلّ شفرات نصوصهم، لأن الشفرات هي المفاتيح التي تحلّ المغاليق، وبالتّالي يتذوّق حلاوته، يقول صاحب كتاب : معالم الفكر العربي "كمال اليازجي" : (إنّ أدب الصوفيين غامض مبهم، ولذلك لم يستنفده البحث نتيجة الصّعوبات التي تواجه الباحث، ثمّ إنّ أتباعه لم يتّفقوا في سلوكهم على خطّة واحدة، ولم يجمعوا في معانيهم ومدلولاتهم على مصطلحات وتعار يف ورموز موحّدة، وحتّى الذين تولّوا شرح المؤلّفات الصّوفية إمّا متصوّفون جاءت شروحهم غامضة غموض الأصل، أو غير متصوّفين التبست عليهم المعاني واشتبهت الأغراض، فلم يجد القاريء في ذلك كلّه كبير غناء والسّبب في ذلك أنّ التّصوّف نزعة روحيّة وجدانيّة، تعتمد على الرّياضة النّفسيّة والإحساس الباطني والذوق الفردي)[16]، فعلى القاريء للأدب الصّوفي أن يكون متمكّنا عالما بإشاراتهم وميولاتهم يقول علي عبد الرحيم القناد:

إذَا نَطَقُواْ أعْجَزَكَ مَرْمَى رُمُوزِهِمْ وَإنْ صَمَتُوا هَيْهَاتَ مِنْكَ اتِّصَالُهْ[17]

فالتّعبير الصّوفي تجاوز اللغة الحسّية العاجزة عن الإفصاح والإبانة ووصف المعاني الرّوحيّة، ممّا جعلهم مضطرّين إلى استخدام المجاز والإشارة، وحتّى مفردات الغزل الحسّي ووصف الخمرة وغيرهما للتّعبير عن العشق الإلهي كما يقولون .

لا يختلف اثنان في كون أنّ اللغة شرط أساسي في بناء التجربة، وأداة تحقيقها، ولكن علاقة الصوفية باللغة(تبقى محكومة بمفارقة، مفادها أنّها شرط وعائق في آن

واحد، فاللغة محدودة، والصوفي ينزع إلى المطلق، فهي متناهيّة، وهو يريد التعبير عن ما لا يتناهى، لذلك تجده مرغما في اللجوء إلى الإشارة والرّمز واللغز)[18]، فلغة الصوفي لغة كشف(والمكاشفة هي مطالعة الحقائق من وراء ستر رقيق، وهي عكس المحاضرة)[19]، لا لغة وصف، لغة لا تقول الأشياء قولا نهائيّا يستنفدها ويأتي عليها، فهي لا تقول الظاهر الواضح والمكرور، والمتواضع عليه، فالصوفي يبحث في العالم الغيبي الباطني اللانهائي (فإنّ باطن اللغة أو الشطح، يوحي بأبعاد لا نهائية، إنّه اللغة فيما وراء اللغة)[20].

يأتي بعد المرام في الأدب الصّوفي، أنّ الصّوفيين . خاصّة في نثرهم .كسّروا ثنائيّة اللفظ والمعنى الحادّة التي تعامل بها النّقاد القدامى، فأصبح المعنى فيه لا تستوعبه الألفاظ، لذلك قال أبو حيّان التوحيدي "ت414هـ":(ضاق اللفظ واتّسع المعنى، وانخرق المراد، وتاه الوهم، وحار العقل، وغاب الشاهد في الغائب، وحضر الغائب في الشاهد، وتنكّرت العين منظورا بها ومنظورا فيها، فكيف يمكن البيان عن قصّة هذا إشكالها)[21]، فالمعنى عندهم ذو تأويلات ودلالات.

تغمر قلوب الصّوفيين وأرواحهم حشد من الأسرار والمعاني لا يمكن للسان أن يعبّر عنها ولا أن يترجمها، ولا يحدّد أحوالها، يقول **ابن عربي"ت 638هـ**": (قوالب ألفاظ الكلمات، لا تحمل عبارة معاني الحالات)[22]، فأحوالهم وارتقاء اتهم والمراتب التي أحلّوها، لم يكن للسان المقدرة على وصفها وتفسيرها، يقول **القشيري"ت406هـ**": (وربما يكون سبب السكوت حيرة البديهة، فإنّه إذا ورد

كشف على وصف البغته خرست العبارات عند ذلك فلا بيان ولا نطق، وطمست الشواهد هنالك فلا علم ولا حسّ)[23].

أصبحت اللغة عاجزة عن وصف أحوالهم، لذلك يعمدون على الإشارة، ورغم ذلك فلن يستطيعوا الوصف عند البحث عن الحقيقة، أو عند الوصول إليها، يقول ابن طفيل"ت581هـ" :(لكنّا مع ذلك لا نخليك عن إشارات نومئ بها إلى ما شاهده من عجائب ذلك المقام على سبيل ضرب المثال، لا على سبيل قرع باب الحقيقة)[24]، لأنّ الحقيقة في نظره لا يمكن التّعبير عنها، ولا التّحقيق بها إلاّ بالوصول إليها، وهي من بعد في حالة الوصول، يتعذّر وصفها، فالصّوفي يعجز عن وصفه للحالة التي يكون عليها، أو المقام الذي يصل إليه.

يعتمد التعبير الصوفي على الذّوق، والذّوق محلّه القلب لا العقل، وللقلوب لغتها الخاصّة بها(فمن رام التعبير عن حال الاتّصال فقد رام مستحيلا، إذ لا سبيل إلى التّحقيق بما في ذلك المقام إلاّ بالوصول إليه، فهو بمنزلة من يريد أن يذوق الألوان المصبوغة من حيث هي الألوان، ويطلب أن يكون السّواد مثلا حلوا أو حامضا)[25]، فالصّوفيّون صاروا بأبدانهم في الدّنيا، وفي الآخرة بأرواحهم، فأنّت قلوبهم، وحنّت أرواحهم شوقا.

يعتبر الذوق . في الأدب العربي عموما، وفي الأدب الصوفي خصوصا . عنصرا أساسيّا في تمحيص اللغة، واختيار الأجود من التعبير(فالذوق هو الحاسّة التي تدرك الحسن واللطيف، وتبعث الأريحيّة في نفس صاحبها، لتستكشف الدّفين من المعاني، والمخبّأ من الدّلالات)[26]، فالأدب شقّه الأكبر هو "العاطفة " والعاطفة غالبا

لا تخضع إلى العقل، قال **ابنحديد " ت 656هـ**": (اعلم أنّ معرفة الفصيح والأفصح، والرّشيق و الأرشق من الكلام أمر لا يدرك إلاّ بالذوق، ولا يمكن إقامة الدّليل عليه)[27]، فالعقل لا يبدع وإنّما العاطفة والذوق، لأنّ من (شأن العقل السكون، ومن شأن الحس التهيج ... فالأريحية للروح، والهزة للنفس)[28].

يعبّر **الغزالي"ت505هـ** "صاحب الإحياء عن نفس المعنى حين يقول:(إنّ الصّوفيين في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتا، ويقتبسون منهم فوائد، ثمّ يترقى الحال من مشاهدة الصّور والأمثال إلى درجات يضيق عنها النّطق، فلا يحاول معبّر أن يعبّر عنها، إلاّ اشتمل لفظه على خطأ صريح، لا يمكنه الاحتراز عنه)[29].

يستفاد من النّموذجين السابقين، أنّ وصف الصّوفي لحاله ابتداء أو انتهاء، أي قبل وصوله إلى الحقيقة أو عند وصوله إليها، فإنّه لا يجد اللغة التي تعبّر تعبيرا وافيا، وإن عبّر فتعبيره يشوبه خطأ وخلل.

يمكن استنتاج فكرة مفادها: أنّ الوصول إلى الحقيقة عند الصّوفيين، يختلف عن وصول الفلاسفة إليها، فالفلاسفة يصلون عن طريق العقل، بينما الصّوفيّون يصلون عن طريق الذّوق والوجدان، فالفلاسفة يعتمدون على المادّيات، والصّوفيون يعتمدون على الحواس، والفلاسفة يفترضون وجود حقيقة مطلقة، وبالتالي قد لا يصلون إليها، أمّا الصّوفيون فيفترضون وجود هذه الحقيقة ويتيقنون من وجودها بعد أن يعرفوها حقّ المعرفة ويتصلوا بها(فهم لا يدركونها عقلا ولا يستطيعون التّعبير عنها، لأن الإدراك العقلي والقدرة على التّعبير من أعمال العقل، ونحن بإزاء أمور فوق طور

العقل)[30]، وقد عبّر عن هذا المعنى الشاعر الصّوفي **ابن الفارض(ت632هـ)** في تائيته الكبرى :

وَلاَ تَكُ مِمَّنْ طِيشَتُهُ دُرُوسُهُ بِحَيْثُ اسْتَقَلَّتْ عَقْلُهُ وَاسْتَقَرَّتِ

فَثَمَّ وَرَاءَ النَّقْلِ عِلْمٌ يَدِقُّ عَنْ مَدَارِكِ غَايَاتِ العُقُولِ السَّلِيمَةِ[31]

يقرّ ابن الفارض بأنّ الوصول إلى الحقيقة ليس عن طريق العقل في الأمور الرّوحانية، فالرّوحانيات تجاوزت العقول، والوصول إلى حقيقتها يتأتى عن طريق الذّوق والإحساس،ولا يعرف هذا إلاّ المتصوّفة، فهم الذين يعتقدون اعتقادا جازما بعمليتي الكشف أو البصيرة، لا بالعملية الاستدلالية العقلية التّحليلية، ويؤكّد هذا المعنى "**راسل" ت 1970م**"(ففي الحياة الصّوفية وحدها، يعرف الصّوفي الحقيقة الوجودية في ذاتها كما يعرف صلته بها، لأنّه يحمل قبسا من نورها في قلبه، وشبيه الشيء منجذب إليه، والفرع دائم الحنين إلى أصله)[32].

يستخلص ممّا سبق أنّ المعرفة الصّوفية ليس الوصول إلى حقيقة علمية أو ظاهرة كونيّة، وبالتّالي يقنّن لها وتوضع لها مقاييس، بل المعرفة الصّوفية هي الوصول إلى الحقيقة التي كانت تبحث عنها الرّوح لا العقل، فالعقل يسبح في إطار لا يتعدّاه، وإن تعدّاه ضلّ وتاه يقول الحارث المحاسبي " ت 243 هـ " من اجتهد في باطنه ورّثه الله حسن معاملته في ظاهره، ومن حسّن معاملته في ظاهره مع جهد باطنه، ورّثه الله تعالى الهداية إليه قال تعالى " ***وَالذِينَ جَاهَدُواْ فِينَالَنَهْدَيَنَّهُمْ سُبُلَنَا*** "[33] ويواصل قائلا: (العلم يورّث المخافة، والزّهد يورّث الرّاحة، والمعرفة تورّث الإنابة)[34].

التعبير الصّوفي هو تعبير شعري بطبيعته، فهو كلام باطني، كلام اللاّشعور، يحرّك المكنونات، ويثير الانفعالات، لأنّه وجداني روحاني، يقول **علي شلّق"ت2008م"**:(.. المعنى هو الشيء في ذاته، شكله اللفظ وكلّ ما يدور في البال من أمور النّفس، والكون ذ و معنى، وهذا المعنى يجمع في جوهره كلّ ما هو كائن وسيكون، فالمعنى هو الذرة المادية، والذرّة الذهنية لكلّ حاضر أو مغيب، فالله معنى، وحبّة الرّمل معنى، ونأمة الصّوت معنى، وهمسة الهواء، ولمعة الضوء، وخلجة الخاطر معنى، المعنى مجرّدا، المعنى شكلا، المعنى في كلّ صورة هو معنى لمعنى، ومعنى في المعنى، فليس الشكل سوى معنى آخر)[35].

يستعمل الصّوفيّون كلمات ومصطلحات خاصّة بهم، سمّاها صاحب اللمع سراج الدينالورّاق " ت 695هـ" في التّصوّف(الألفاظ المشكلة الجاريّة في كلام الصّوفيّة، وهي أربعة وخمسون ومائة لفظ، يذكرها الطّوسي، ويبيّن معناها الصّوفي)[36].

يصعب فهم الأدب الصّوفي خاصّة على غير الصّوفيّين، لأنّهم انفردوا بألفاظ ومصطلحات لا يستخدمها سواهم، **يقول القشيري"ت 406هـ"**:(والصّوفيّون مستعملون فيما بينهم ألفاظا قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم، والإجماع والستر على من باينهم في طريقتهم)[37]، من هنا يتجلّى أنّ الأدب الصّوفي أدب معان، لا أدب ألفاظ .

لم تصبح الألفاظ قادرة على استيعاب المعاني(فالأفكار والأسرار عند الصّوفيين دقيقة ومبهمة، لأجل هذا لجأوا إلى الرّمز والإشارة، فقد وجدوا فيهما الحلّ

للتّعبير عن ما يجيش بدوا خلهم وخواطرهم،فالتعبير عنهم تلميح، والتّلميح أشدّ تأثيرا من التّصريح)[38]، فاعتمادهم الإبهام والغموض ناجمان عن خشيتهم من أن تستباح دماؤهم من الظّاهريين، فهناك من كان يضغط عليهم من الفرق الدّينيّة خاصّة، فقد كفّروهم واتّهموهم بالزّندقة، فما كان عندهم بدّ سوى استعمال مصطلحات خاصّة بهم قال **القشيري:"406هـ"** (وهذه الطّائفة – الصّوفيّون – مستعملون ألفاظا بينهم قصدوا بها الكشف لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب، غيرة منهم على أسرارهم، أن تشيع في غير أهلها)[39] .

تتأتى صعوبة فهم التعبير الصوفي وحلّ ألغازه ومكامنه ومضمونه من حيث أنّ أصحابه(يصطنعون تارة أسلوب الإشارة والتلويح، الذي يعمدون فيه إلى الإغراب، ويعوّلون فيه على المجازات والاستعارات والكنايات، وما إلى هذا كلّله من ألوان الرّمز الملغّز، الذي من شأنه أن يزيد الأمر خفاء، فلا يكاد القارئ أو السّامع يدري ما ذا وراء هذه الألفاظ التي صيغت على هذا الوجه من أوجه الصياغة في هذا الضرب الأسلوب)[40]، فالصّوفيّون ذلّلوا اللغة وجعلوها طيّعة ليّنة، يشكّلونها كيفما شاؤوا، فهي ترضخ لهم وتنحني .

آثر الصوفيون وفضلوا وبالغوا في اصطفاء الإشارة على العبارة(لما تمتاز به الإشارة من اللطافة والدّقة التي تجعلها أكثر اتّساعا للحقائق الرّوحية، والدّقائق العليّة من العبارة، ثمّ إنّ التلويح سبيل إلى كتمان الأسرار الإلهيّة وصيّانتها ضنّا بها عن أن يبيحها الواقف عليها، والذّائق لها لمن ليس من أهلها ولا خليقا بها)[41]، فحين التعبير عن الأسرار الرّبانية، وما يبدو للصوفي ويترآى له، يصعب وصفه لدقة الموقف ولطافته

ورقّته ، فيلجأ إلى الإشارة والرّمز يقول **أبو حيّان التوحيدي "ت 414هـ"**: (آه من أنفاس تتحقق بأسرار الحق في عرصات الغيب على بسط التململ، حيث ليس للعبارة فيه نصيب، ولا للإشارة فيه تقريب)[42]، فهو يعترف بأنّ الإشارة تعجز عن الوصف.

بات معلوما أنّ من مظاهر التعبير الصوفي استعمال الإشارة عند عجز العبارة عن الإيفاء بالمطلوب، ومن وسائل التعبير هو الشطح*[43](وما الشطحات الصوفيّة إلاّ ضرب آخر من التعبير عن حالة الصوفي في لحظة وجد عنيفة، يتلاشى فيها بالمطلق وتذوب أناه في الآخر في عمليّة اتصال وتواصل معرفي في أقصى درجاته إلى حدّ يصبح فيه العالم هو عين المعلوم)[44]، كما أنّ الشطح يدلّ على أنّ الصوفي بلغ حالا أقوى من طاقته (والشطح ينبيء بعدم تحمل المريد لهجوم أنوار الحقائق الروحية التي تقتحم دواخله)[45]، الشطح في اللغة المعجمية هو الحركة، وعند الصوفيين (فهي حركة أسرار الواجدين إذا قوي وجدهم فعبّروا عن وجدهم ذاك بعبارة يستغرب سامعها)[46].

يستفاد ممّا سبق أنّه كلّما كان النّص حاويّا التأويل والإشارة والمجاز، كلّما كانت له إمكانات واحتمالات عديدة من احتمالات المعنى، وهكذا يتحوّل الأثر إلى نصّ مفتوح يجسّد موضوعا لحياد أو لغيابأيّ تبعيد المطلوب والمقاصد الكلاميّة عن القارئ.

الإشارة أساس أسلوب الإشارات الإلهيّة للتّوحيدي(في الإشارات الإلهيّة، تحدّث أبو حيّان بلغة الإشارات)[47]، هو يدرك ما للإشارة من أثر في الأفئدة

والأهواء والمشاعر، فتحرّك الحواس والعقول، وتبعث على الدّهشة والإعجاب (... يا هذا : أما ترى فنون الإشارة إلى غايات الحقيقة، بصنوف العبارة عن الأركان الوثيقة، دالّة على الآيات الأنيقة، جامعة للآراء الرّبيقة، فجل في أطرافها طالبا نفسك فيها، وغصّ في أعماقها محصّلا لحقيقتك منها)[48]، نلمح من قوله : " جل في أطرافها " وقوله : " غصّ في أعماقها " دعوة إلى التّأمّل والتّدبّر وقوّة التّركيز، وهذا يدلّ على أنّ التوحيدي متيقن من أنّ اللذة مضمونة، والمتعة موجودة حاضرة، لأنّ عناصر وجودهما متوفّرة، من جدّة واستطراف وإعجاب ومفاجأة، فهذه العناصر تحدث الاستجابة الجماليّة.

التعبير الصوفي خليق بأن يعتمد على الإشارة، لأن العبارة أصبحت عاجزة عن البوح بكلّ ما في الدّواخل من الخفايا والمكنونات (فالإشارة لا العبارة، هي المدخل الرّئيس للتجربة الصوفية)[49]، وهي بذلك حركة إبداعيّة، وسعت مجال اللغة الشعريّة (والصوفيّة تؤسس لطريقة جديدة في المعرفة، قوامها الذّوق والحدس لا العقل والمنطق)[50]، والتعبير عن الأذواق والأشياء الروحانية والشعورية والنّفسية صعب المنال، فهو يتفلّت ويتهرّب فهو آبق عاق .

حين يريد الصوفي التعبير عن حالة من الأحوال تجده مضطرّا إلى تجاوز العبارة لعجزها عن الوصف، وإبلاغ المراد(ولما كانت العبارة موضوعة للإحاطة بالفكرة، وكانت الفكرة أعلى وأجلّ من أن تحصى وأن تحدّ، ومن أن يحاط بها، لجأ إلى الإشارة)[51]، فالصوفي شاعر، بل الشاعر صوفي، فكلاهما أديب، (والأديب عموما . والصوفي خصوصا . قادر على أن يقوّل اللغة أكثر ممّا تعلّمت قوله) [52].

خاتمة : اللغة الصوفية لغة شعريّة، تتملّص، فهي زئبقية لا تقيد (فكلّ شيء فيها يبدو رمزا، كل شيء فيها هو ذاته، وشيء آخر)[53]، فالصوفي يعبّر عن قضايا غيبية ومطلقة، وبالتالي يصعب حصرها، والإحاطة بها(هي تجليات المطلق، تجليات لما لا يقال، ولما لا يوصف، ولما تتعذر الإحاطة به، فما لا ينتهي لا يعبّر عنه إلاّ بما لا ينتهي)[54]، فالمطلق لا يحاط، ولا يقيّد، فالتعبير الصوفي تعبير ناجم عن الأذواق والمشاعر(فا للغة الشعرية تكمن أساسا في السحر والإشارة، فهي لا تعبّر، ولا تصف، أي لا تبوح ولا تصرّح، وهذا مصدر غموضها) [55].

تتخذ الإشارة أبعادا بنائية تأطيريّة، هي التي تتحكّم بقوانين توزيعها في فصول الخطاب الصوفي المفعمّ بالفنّ والجمال.

الهوامش:

[1]- ابن رشيق – العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده – تح : محمد يحي بن عبد الحميد- دار الجيل – ط5- 1981- بيروت – لبنان – ص 302.

[2]- علي تقي الدين أبي بكر – خزانة الأدب تح : عصام شعيتو- – ج2- ط1 – 1987- دار مكتبة الهلال – بيروت – لبنان – ص 258 .

[3]- البسطامي أبو يزيد – المجموعة الصوفيّة الكاملة – تح : قاسم محمد عباس –ط1- 2004- دار المدى للثقافة والنشر – دمشق – سوريا – ص 152.

[4]- أبو نصر عبد الله بن على السّراج الطوسي- اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي- تح : عماد زكي البارودي – المكتبة التوفيقية – القاهرة – مصر – ص 18.

[5]- المصدر نفسه – ص36.

[6]- المصدر نفسه – ص373 .

[7]- نفس المصدر – ص 339.

[8]- عبد الرّازق الكاشاني – معجم اصطلاحات الصوفية – تح :عبد الخالق محمود- ط3- 2007- مكتبة الآداب – القاهرة – مصر – ص 19.

[9]- محمد ياسر عيون السود – ديوان الحلاّج – ط1- 1998- دار الكتب العربية – بيروت – لبنان – ص 57 .

[10]- عبد الله بن محمد بن سفيان – قرى الضيف – ج3- ص281.

[11]- الكلاباذي – التعرف لمذهب أهل التصوّف – ص 89/88.

[12]- أبو حيّان التوحيدي – الإشارات الإلهية والنفحات الربانية – تح : وداد القاضي – دار الثقافة – 1982- بيروت – لبنان – ص 388.

[13]- المصدر نفسه – ص4/3.

[14]- المصدر نفسه – مقدّمة الإشارات الإلهيّة – ص 5.

[15]- نفس المصدر – ص 313.

[16]- ينظر –كمال اليازجي – معالم الفكر العربي – ط6- دار العلم للملايين – 1979- بيروت – لبنان – ص 266.

[17]- أبو نصر عبد الله بن علي السّراج الطوسي– اللمع في تاريخ التصوف الإسلام – ص 416 .

[18]- ينظر – وفيق سليطين – الشعر والتصوف – – الهيئة العامة السورية للكتاب – 2008- اللاذقية – سوريا –ص 8.

[19]- أيمن حمدي – قاموس المصطلحات الصوفي – دار أنباء للطباعة والنشر والتوزيع – 2000- القاهرة – ص 86.

[20]- د. وفيق سليطين – الشعر والتصوف – ص 13.

[21]- أبو حيّان التوحيدي – الإشارات الإلهيّة – ص 152.

[22]- عبد الجبار النفري – المواقف والمخاطبات – تصحيح : آثر يوحنا أربري– مكتبة المتنبي – 1934- القاهرة – مصر – ص 115.

[23]- القشيري – الرسالة القشيرية – ص 69 و: د. وفيق سليطين- الشعر والتصوف – ص 75.

[24]- د . مجدي محمد إبراهيم – مشكلةالاتصال بين ابن رشد والصّوفية – تصدير :عاطف العراقي ط1- 2001- مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة – مصر – ص 32.

[25]- المصدر السابق – ص 32.

[26]- الجرجاني عبد القاهر – دلائل الإعجاز – ص 191/190.

[27]–د.عبد الفتاح لاشين –التراكيب النحويّة من الوجهة البلاغيّة عند عبد القاهر الجرجاني– دار المريخ للنشر– الرياض– المملكة العربية السعودية – دار الجيل للطباعة – مصر– 1980- ص 169.

[28]- أبو حيان التوحيدي – الإمتاع والمؤانسة – ج2- ص 83.

[29]– الغزالي – المنقذ من الضلال – تح : عبد الحليم محمود – 1955– مكتبة الأنجلو مصرية – مصر – ص 131.

[30]– د. مجدي محمّد إبراهيم – مشكلة الإتصال بين ابن رشد والصّوفية – ص 35.

[31]– عمر بن الفارض – الديوان – تح : كرم البستاني – 1979– دار بيروت للطباعة والنشر – بيروت – لبنان – ص 109.

[32]– د. أبو العلا عفيفي – التّصوف ، الثورة الرّوحية في الإسلام – بيروت – د.ت – دار الشعب – ص 17

[33]– سورة العنكبوت – الآية 29.

[34]– أبو نعيم الأصفهاني – حلية الأولياء – ج10– ط1– 1988– دار الكتب العلميّة – بيروت . لبنان – ص88.

[35]– علي شلق – مراحل تطوّر النّثر العربي في نماذجه – ج3 – ص 572 .

[36]– د. ضحى يونس – القضايا النّقدية في النّثر الصّوفي حتّى القرن السّابع الهجري – منشورات اتحاد كتاب العرب – دمشق 2006 – ص 105 اللمع في تاريخ التّصوّف الإسلامي – باب في شرح الألفاظ الجارية في كلام الصوفية – ص 336/335.

[37]– عبد الكريم القشيري – الرّسالة القشيريّة – ص295 .

[38]– ابو نعيم الأصفهاني – حلية الأولياء للأصفهاني – ج9– ص 395.

[39]– عبد الكريم القشيري – الرسالة القشيريّة – ص 295.

[40]– د.محمد مصطفى حلمي – الحبّ الإلهي في التصوف الإسلامي – دار القلم – 1960––وزارة الثقافة والإرشاد القومي –الإدارة العامة للثقافة – ص 7.

[42]– المرجع نفسه– ص 16.

[43]– أبو حيّان التوحيدي – الإشارات الإلهيّة – ص 206 .

[44]* الشطح : كلمة عليها رائحة رعونة ودعوى ، تصدر من أهل المعرفة باضطرار واضطراب ، وهو من زلات المحققين ، فإنّه دعوى حتى يفصح بها العارف ، لكن من غير إذن إلهي ، بطريق يشعر بالنباهة ، مأخوذ عن : علي بن محمد بن علي الجرجاني –كتاب التعريفات – ص 118 / 119.

[45]– د. أمين يوسف عودة – تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفيّة – ص 156.

[46]– البسطامي أبو يزيد – المجموعة الصوفية الكاملة ، ويليها كتاب تأويل الشطح –ص 16 .

[47]– المصدر نفسه – ص 15.

[48]– صلاح عبد الصبور –كتابة على وجه الريح – ص 92.

[49]– أبو حيّان التوحيدي –الإشارات الإلهيّة – ص 49/48.

[50]– أدونيس – الصوفيّة والسريالية – ط2– 1995– دارالساقي – بيروت –لبنان– ص 23.

[51]- عبد الحميد هيمة – الخطاب الصوفي وآليات التحويل ، قراءة في الشعر المغاربي- ص 65.

[52]- محمد راتب – النّص والممانعة – منشورات إتحاد الكتاب العرب – ص .42

[53]- المرجع نفسه – ص 28.

[54]- أدونيس – الصوفية والسريالية – ص 23 .

[55]- محمد بنيس – الشعر العربي الحديث ، بنياته وإبدالاتها – ج3- ط1- 1999- دار تو بقال – الدار البيضاء – المغرب – ص 95.

المصادر والمراجع :

1- أمين يوسف عودة – تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفية – ط1- 2008- عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع – الأردن.

2- أيمن حمدي – قاموس المصطلحات الصوفية –دار أنباء للطباعة والنشر والتوزيع – 2000- القاهرة – مصر.

3- الجرجاني عبد القاهر – دلائل الإعجاز –شرح وتعليق : عبد المنعم حفاجي – ط1- 2004- دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع –بيروت – لبنان.

4- أبو حيان التوحيدي – الإشارات الإلهية والنفحات الربانية – تح : وداد القاضي – دار الثقافة – 1982- بيروت – لبنان.

5- أبو حيان التوحيدي – الإمتاع والمؤانسة تح : أحمد أمين ، أحمد الزين – منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت – لبنان.

6- أدونيس – الصوفية والسريالية – ط2- 1995- دار الساقي – بيروت – لبنان.

7- عبد الرزاق الكشاني- معجم اصطلاحات الصوفية –تح : عبد الخالق محمود – ط3- 2007- مكتبة الآداب – القاهرة – مصر.

8- عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان – قرى الضيف – تح : عبد الله بن حمد المنصور –ط1- ج3-1997- أضواء السلف – الرياض – السعودية.

9- عبد الله بن علي السراج الطوسي – اللمع في تاريخ التصوّف الإسلامي – تح : عماد زكي البارودي – المكتبة التوفيقية – القاهرة – مصر.

10- عبد الجبار النفري – المواقف والمخاطبات – تصحيح : آثر يوحنا أربري – مكتبة المتنبي 1934- القاهرة – مصر.

11- عبد الفتاح لا شين – التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني – دار المريخ للنشر – الرياض – المملكة السعودية –دار الجيل للطباعة – 1980- مصر .

12- عبد الحميد هيمة – الخطاب الصوفي وآليات التحويل ، قراءة في الشعر العربي المغاربي المعاصر – 2008- موفم للنشر – الجزائر.

13- علي شلق – مراحل تطوّر النثر العربي في نماذجه – ج3-.

14- علي تقي الدين أبي بكر – خزانة الأدب – تح :عصام شعيتو- ط1- 1987- دار مكتبة الهلال – بيروت – لبنان.

15- عمر بن الفارض – الديوان – تح : كرم البستاني – 1979- دار بيروت للطباعة والنشر – بيروت – لبنان.

16- أبو العلاء عفيفي – التصوّف ، ألثورة الروحية في الإسلام – دار الشعب – بيروت – لبنان.

17- الغزالي – المنقذ من الضلال – تح : عبد الحليم محمود – 1955- مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة – مصر.

18- أبو نعيم الأصبهاني – حلية الأولياء ج10- ط1-1988- دار الكتب العلمية – بيروت لبنان.

19- مجدي محمد إبراهيم مشكلة الاتصال بين ابن رشد والصوفية – تصدير :عاطف العراقي – ط1 2001- مكتبة الثقافة الدينية – مصر.

20- محمد ياسر عيون الأسد – ديوان الحلاج – ط1- 1998- دار الكتب العربية – بيروت – لبنان.

21- محمد مصطفى حذلمي - الحبّ الإلهي في التصوّف الإسلامي – دار القلم 1960- وزارة الثقافة والإرشاد القومي – الإدارة العامّة للثقافة.

22- محمد بنيس – الشعر العربي الحديث ، بنياته وإبدالاتها – ج3- 1999- دار توبقال – الدار البيضاء – المغرب.

23- محمد راتب – النص والممانعة – منشورات : إتحاد الكتاب العرب– موقع : اتحاد الكتاب العرب على شبكة الأنترنيت.

24- ابن رشيق –العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده – تح :محمد يحي بن عبد الحميد – ج1-ط5- دار الجيل – 1981- بيروت – لبنان.

25- كمال اليازجي – معالم الفكر العربي –ط6- دار العلم للملايين – 1979- بيروت – لبنان.

26- الكلاباذي – التعرّف لمذهب أهل التصوّف – تح : محمود أمين النواوي من علماء الأزهر – ط3- 1992- المكتبة الأزهرية للتراث – مصر.

27- ضحى يونس – القضايا النقدية في النثر الصوفي حتى القرن السابع الهجري – منشورات اتحاد الكتاب العرب – 2006- دمشق – سوريا.

28- القشيري – الرسالة القشيرية في علم التصوف- دار الكتاب العربي – 1957- بيروت – لبنان.

29- وفيق سليطن – الشعر والتصوّف - الهيئة العامة السورية للكتاب 2008- اللاذقية – سوريا.

30- أبويزيد البسطامي – المجموعة الصوفية الكاملة – تح : قاسم محمد عباس – ط1- 2004- دار المدى للثقافة والنشر – دمشق – سوريا.